المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 15A تشرين2 2024
No.15A Nov 2024

النزعة الإنسانية فيما قيل من أشعار بحق الإمام الجواد -عليه السلام- (دراسة فنية موضوعية)

م.م. رحاب فياض شنين
جامعة ذي قار/ رئاسة الجامعة
rehab.fayyadh@utq.edu.iq

الملخص:

إن قضية الإنسان كانت، ولا زالت محط اهتمام كثيرٍ من الدراسات الأكاديمية الحديثة، إذ قدمت تلك الدراسات نتاجاً ليس بالقليل وأعطت تصورًا واضحاً عن النظرة إلى أهمية الإنسان وعلى مكانته المحورية في هذا الكون على مختلف الثقافات والأديان؛ لهذا كان التركيز مؤخرًا على النزعة الإنسانية، حاجة لا بد منها؛ للارتقاء بواقع البشرية ، لاسيما ما يجري على الساحة البشرية اليوم من أحداثٍ تدفع بالعالم إلى اللاإنسانية إلى النزاعات، والحقد، والتعصب العرقي، ولأن الدين الإسلامي ينطلق من باب تكريم الإنسان، فقد كرَّم الله تعالى الإنسانية جمعاء بنعمة محمد وآل محمد -عليهم السلام-والمتأمل في أحاديثهم الشريفة يجدها دعوة إلى التسامح ، والسلام، والعدل، والحرية، ونصرة للمظلومين من الضعفاء ، والحوار مع الآخر ، ودعوة للانفتاح على الثقافات الأخرى، وتكافؤ الفرص؛ لذلك يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على هذه الجوانب الإنسانية وغيرها في أحاديث منبر من منابر النور الإمام محمد الجواد -عليه السلام- فناً وموضوعاً، واستجلاء ثمراتها بأسلوبٍ فنيّ يقنع القارئ ويؤثر فيه.

الكلمات المفتاحية: الإمام محمد الجواد-عليه السلام- ، الإنسانية ، موضوعية ، فنية.

Humanism in the sayings of Imam Muhammad bin Ali Al-Rida (peace be upon him) / an objective artistic study

Asst.Lect. Rehab Fayyad Shanin
rehab.fayyadh@utq.edu.iq
University of Thi Qar / Presidency University

ABSTRACT:

The issue of man has been and continues to be the focus of attention of many modern academic studies، as these studies have produced quite a few results that have given a clear vision of the view on the importance of man and his pivotal place in this universe on various cultures and religions. Therefore، the recent focus on humanism has been a necessity. It is necessary to improve the reality of humanity، especially the events taking place on the human scene today that push the world towards inhumanity، towards tendencies، hatred and racial fanaticism، and because the Islamic religion is based on honoring the human being.، God Almighty has honored all of humanity with the grace of Muhammad and his family (peace be upon them). Anyone who meditates on their noble hadiths will find them a call to tolerance، peace، justice and freedom، support for the oppressed of the weak، dialogue with others، and a call for openness to other cultures and equal opportunities. Therefore، this research seeks to Shedding light on these and other human aspects in the hadiths of Imam Muhammad al-Jawad (peace be upon him) in art and subject matter، and highlighting their fruits in an artistic style that convinces and influences the reader.

Key words: Imam Muhammad Al-Jawad (peace be upon him)، humanity، objectivity، art.

المقدمة:

يُعد مفهوم الإنسانية من المفاهيم التي تناولتها أقلام الباحثين بالدراسة والبحث، وهي كمفهوم يختص بدراسة الإنسانيات وآدابها ترتكز على الإنسان بوصفه القطب الذي تحوم حوله الغايات والمقاصد، وعلى الرغم من إنها مفهوماً قديماً تعود إلى عصورٍ قديمة "إلا أنها تظل مفهومًا حديثًا لم يدخل المعجم الغربي قبل القرن التاسع عشر؛ ولعل الشاعر والمفكر الرومانطيقي كوليردج أول من استخدم المصطلح 1812، لكن مفردة إنسانوي ظهرت في القرن السادس عشر"[1] ، بوصفها "حركة فكرية تاريخية، لإحياء الماضي المشرق"[2] وقد اختلف النقاد في تعريف هذا المفهوم إلا أنه على اختلافهم مثَّلت الإنسانوية بداية الانطلاق الغربي في تطور الآداب والفنون ومن ثمَّ امتدت إلى مجال الدين والتعليم، وهي مرحلة متأخرة إذا ما قورنت ببداية النزعة الإنسانية في المجتمع الإسلامي، الأمر الذي حاول الدكتور زكي الميلاد أن يبنه إليه بقوله: "لا شك أن بإمكاننا حشد ما لايمكن حصره من الأدلة والبراهين والقرائن، ومن القيم والتشريعات والأخلاقيات، التي تبرهن على أصالة النزعة الإنسانية في الثقافة الإسلامية)[3]، ويسوق الباحث بهاء الدين محمد شاهدًا من القرآن الكريم من قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير"[4]، ويعلق بقوله: هل نحن بحاجةٍ إلى أكثر من التحليل لنقف على أصالة النزعة الإنسانية في المساواة، وعدم التمييز على أُسسٍ نوعيةٍ أو جنسيةٍ، أو قوميةٍ، أو عرقيةٍ، والتأكيد على التفاعل والتبادل ونفي الأحادية[5].

1- أهمية البحث:

– استجلاء المعاني الإنسانية، والكشف أنها فنيًا وموضوعيًا؛ خدمة للنفس الإنسانية التي ارتقى بها الدين، وكرمها الله تعالى، ومحاولة التأسي بهذا الخلق الحسن.

2- أهداف البحث:

الكشف عن النزعة الإنسانية في الأشعار التي قيلت في حق الإمام الجواد- عليه السلام-

3- مشكلة البحث، والتساؤلات البحثية:

المشكلة التي سيجيب عنها البحث تتمثل في السؤال الرئيس التالي:

ما أهم النزعات الإنسانية التي كشف عنها الشعر الذي قيل في حق الإمام الجواد -عليه السلام-؟

ويتمخض عن هذا السؤال عدد من التساؤلات سيحاول البحث الإجابة عنها، وهي:

من هو الإمام الجواد؟

ما المقصود للنزعة الإنسانية؟

كيف كشفت الدراسة الفنية عن أبرز الجوانب الإنساني؟

كيف عالج الشعر الجوانب الإنسانية؟

4- منهج البحث:

اقتضى هذا البحث اتباع المنهج الوصفيّ التحليليّ، حيث الوقوف على النصوص، ومن ثمَّ وصفها وتحليلها تحليلًا مفصلًا؛ للكشف عن النزعة الإنسانية في الأشعار التي طُرحت للاستشهاد بها هنا.

الدراسات السابقة: لقد سبق هذا البحث عددًا من البحوث التي تناولت النزعة الإنسانية في أشعار الشعراء، ومن بين هذه الأبحاث ما يلي:

- **النزعة الإنسانية في شعر البجاوي**: للباحث/ عبد الحافظ عبد المنصف خليف، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بإتاي البارود، ع28، ج1، 2015، وقد كشف هذا البحث عن النزعة الإنسانية في شعر البجاوي، وقدم الباحث نبذة عن عبد الرحمن البجاوي تضمنت مولده، وتعليمه، وأساتذته، ووظائفه، وعضويته للجمعيات والأندية الأدبية، ومؤلفاته. وعرف مصطلحات البحث وهي الوطن، والمجتمع، والنزعة الإنسانية. وانتقل إلى الدراسة الموضوعية لكل من، المضمون الوطني وأكد على اهتمام البجاوي به ووجه كل طاقاته إلى خدمة وطنه وتمجيده، والمضمون الاجتماعي مشيرًا إلى اعتناء البجاوي به ودعوته للتخلص من الماضي بأوزاره كلها، وانتقل إلى الشكل الفني لشعر البجاوي في الشكل والمضمون، وأكد على تنوع الأساليب عند البجاوي في شعر النزعة الإنسانية بين الأسلوب الجزل، والأسلوب السهل، والأسلوب السوقي، والأسلوب الإنشائي، والأسلوب الخبري، والقصر، والإطناب، الاقتباس من كلا من (القرآن الكريم، الشعراء السابقين). وبين أن الموسيقى عند البجاوي تنقسم على موسيقى خارجية وداخلية، وأكد على صدق العاطفة في شعر النزعة الإنسانية عن البجاوي. أما التصوير الشعري عند البجاوي، فقد استخدم فيه أنماطًا بلاغية معروفة، كالتشبيه والاستعارة، وهو من الشعراء الذين اعتنوا بالوحدة العضوية في شعره، واختتم البحث بتقديم مجموعة من النتائج أهمها، أن البجاوي لم ينجرف مع التيارات الحديثة في قوالب الشعر فهو يؤمن بأهمية الأوزان العروضية الكلاسيكية والقافية الموحدة.
- **النزعة الإنسانية في الشعر الحديث الكوارث الطبيعية والمعارك الحربية نموذجًا:** للباحث/ عبد الكريم أحمد مغاوري، وهو بحث منشور بمجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع75، 2022، وقد أظهر الباحث دورًا من الأدوار الإنسانية والاجتماعية التي يقوم بها الفن الشعري، ألا وهو التفاعل والتعاون والتشارك الإنساني، وخاصة في أوقات الأزمات الكبرى كالحروب، والكوارث الطبيعية، تلك الأمور التي يذوق ويلاتها وعذابها كثير من الناس؛ فيتأثر الشاعر بمصاب هؤلاء، وينفعل بعذاباتهم ومعاناتهم؛ فيأسى ويألم، ويأخذ في البحث عما يستطيع به أن يخفف من آلامهم، كما يعمل على حثّ إخوانه لتقديم يد العون والمساعدة؛ لاستنفاذ هؤلاء البشر مما هم فيه من ويلات وعذابات ليس لهم أي دخل في وقوعها ولا التسبب فيها، فيخاطب إخوانه بأرأف وأرهف ما فيهم، إنه يخاطب مشاعرهم وعواطفهم ليستجلب شفقتهم ورحمتهم، ومن ثم ما يستطيعونه من مساعدات مادية وعينية لتقديمها لهؤلاء من مطاعم ومشارب وملابس وأماكن إيواء، وقد سلك الباحث في بحثه هذا المنهج الوصفي التحليلي فهو أنسب المناهج في دراسة مثل هذه النصوص وتصنيفها واستخراج بعض أسراره.

خطة البحث: اشتمل هذا البحث على ملخص ثم مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع، وذلك على النحو التالي:

- **الملخص**: جاء متضمنًا لخلاصة هذا البحث، وأهم ما تم التوصل إليه من نتائج.
- **المقدمة: تناولت فيها ما يلي:**

أهمية البحث.

أهداف البحث.

مشكلة البحث، والتساؤلات البحثية.

منهج البحث.

الدراسات السابقة.

- **التمهيد: وقد اشتمل على مطلبين، هما:**

المطلب الأول: التعريف بالنزعة الإنسانية.

المطلب الثاني: نبذة موجزة عن حياة الإمام محمد الجواد.

- **الخاتمة:** وفيها خلاصة ما ورد في البحث، وأهم النتائج التي توصلتُ إليها.
- **قائمة المصادر والمراجع:** وهي زاد الباحث، وفيها توثيق للمصادر والمراجع التي اتكأت عليها في بحثي هذا.

المطلب الأول

التعريف بالنزعة الإنسانية

وقد ورد معنى **النزعة** في المعاجم العربية في باب نزع : أي نزع الشيء، مال إليه، فنزع: نَزَعتُ الشيء : قَلَعتُه ، أَنَزِعه نَزعًا، وانتزعته أسرع وأخف [6] ، وتعود جذور لفظ **الإنسانية** إلى المصدر الصناعي المشتق من الإنسان: والإنسان كائنٌ مجهول متشعب الارتباط ، يتكوَّن من ، عقلٍ، وعاطفةٍ ، ونفسٍ ، وروحٍ ، وجسدٍ[7] ، فهو مصدر الكون؛ لهذا "يسمى العالم بالإنسان الكبير"[8]، عليه فإن النزعة الإنسانية،هي نظرةٌ قائمةٌ على احترام الإنسان، والاهتمام بمشاكله دون تميز أو عنصرية، فكل له اتجاهاته وانفعالاته[9] ، هذا إن لم يخرج الإنسان عن إنسانيته التي جُبل عليها، وإلا فإنه لا يحمل صفة الإنسانية عندها.

ولقد ورد في قاموس المصطلحات أن: " الأنسية أو النزعة الإنسانية تعبير شائع في العلوم الإنسانية، لكنه يستخدم بمعانٍ مختلفة، وأحيانًا متناقضة، وإذا أردنا التعميم يمكن وصفه بذلك التيار الفكري الواسع الذي يسعى إلى التأكيد على القيم الإنسانية في مواجهة القيم المادية، أو الاقتصادية، أو التقنية، أو الدينية، والعلوية عمومًا، ففي عصر النهضة كانت النزعة الإنسانية عبارة عن النزعة إلى تقديس العقل، وإلى العودة إلى الثقافة القديمة، أي تجاوز ثقافة القرون الوسطى لدينية واللاهوتية، والنزعة الإنسانية عمومًا هي نزعة إلى اعتبار الإنسان مقياسًا للأشياء كلها، وبالنسبة للبعض هي التأكيد على ان الإنسان يستطيع بقواه الخاصة أن يصل إلى الخلاص"[10].

المطلب الثاني

موجز عن حياة الإمام محمد الجواد -عليه السلام-

في الحقيقة إن حياة الإمام على قصرها حافلة بالكثير من الأحداث الإنسانية والعبر التي أفادت منها الأمة الإسلامية، وإذا ما ذكرنا النزعات الإنسانية، رأيناها مجتمعة في حياته الشريفة، فقد "توفرت فيه كافة الصفات والمؤهلات...التي لا تقاس بغزارتها علوم الخلائق"[11]

1- اسمه ونسبه:

هو: أبو جعفر محمد بن عبد الجواد (195-هـ 220هـ) محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه هي سبيكة النوبية، كما عُرفت باسم (خيزران)، وقيل إن الرضا هو من أطلق عليها تلك التسمية[12].

2- مولده:

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادة الإمام، فمنهم من ذكر أنه ولد في شهر رجب سنة 195هـ[13]، ومنهم من ذكر أن ولادته كانت في رمضان سنة 195هـ[14]، لكن لا خلاف أنه وُلد في المدينة المنورة.

3- إمامته

إن الإمام أبو جعفر محمد الجواد هو تاسع الأئمة الاثنى عشر، وتسلم الإمامة عقب شهادة أبية الإمام الرضا- علي السلام- وقد استمرت إمامته لمدة سبعة عشر عامًا، ومما ذكره المؤرخون عن إمامته أن الفقهاء والعلماء من بغداد الأمصار الإسلامية لما اقترب موسم الحج اجتمعوا وصقدوا المدينة المنورة؛ للقاء الإمام، وقد اجتمعوا في دار الإمام جعفر الصادق، وجسلوا على بساط منتظرين الإمام الجواد، ولما دخل عندهم، قاموا باستقبلاه والتسليم عليه، وجلس في مقدمة مجلسهم، وأخذوا يسألونه، وهو يجيبهم بأدلة باتة، وقاطعة، فخرجوا من عنده، ثم دعوا له رغم حداثة سنة في ذلك الوقت[15].

4- وفاته:

توفي الإمام الجواد – عليه السلام- سنة 220هـ، ودُفن بمقابر الكاظمية التي اشتراها جده موسى بن جعفر الكاظم في مقابر قريش[16].

المبحث الأول

نزعة الظلم والجور

إن الطبيعة الإنسانية تنزع في كل وقتٍ إلى نبذ الظلم والعدوان، وتأبى الذل والعبودية لغير الله، ومما لا يخفى على أحد تعلق الشيعة بأمتهم، فهم موطن تقديس يشاطرونهم المظلومية يحزنون لحزنهم، ويفرحون لفرحهم، إذا ما تعرض أحدهم لظلم حاكمٍ مستبدٍ يهرع محبيهم ومنهم الشعراء إلى نصرتهم ، ومن أهم التقنيات الفنية التي اعتمدها الشعراء هو حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال، فإذا كان الابتداء حسنًا حسن ما بعده من الكلام[17] يقول السيد مهدي الأعرجي[18]:

إن أرَدْتَ النّجاةَ يَوْمَ الْمَعَادِ ... جُدْ بِدَمْعٍ عَلَىْ الْإِمَامِ الْجَوَادِ
لَسْتُ أَنْسَاهُ حِينَ أشخَصَهُ الْما ... مُوْنُ مِنْ يَثرِبٍ إلَى بَغدادِ
قَدْ قَضَى في بَغْدَادَ وَهُوَ غَرِيْبٌ ... بِفُؤَادٍ مَنْ شُعْلَةِ السُّمِّ صَادِ

وبحسن الابتداء يدخل الشاعر في غرض القصيدة مباشرة، ويخلص إلى رثاء الأمام الجواد(ع)، بمشاعر حقيقية وصادقة تظهر مدى مظلومية أهل بيت الله، التي استوجبت البكاء الشديد، ليشير إلى لب القضية الكبرى، ألا وهي الظلم وهو أمرٌ قد يتعرض له أي إنسان في كل بقاع الأرض، وما جرى على الإمام عليه السلام هو صوره كبرى، ودعوى استهجان للظلم.

وظف شعراء الشيعة الرثاء بما يرتقي لنزعاتهم الإنسانية، لاسيما ما جار على عترة النبي المصطفى عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ولعل ما ذكره الشاعر محمد سعيد المنصوري في هذه الأبيات ما يدل على براعة ذلك التوظيف، في قوله[19]:

الْبسيَّ يا قَلْوبُ ثوبَ الْحِدَادِ ... واقبَعيَّ بِالأسىَّ لفَقدِ الجَوَادِ
أقصَرُ الطّاهِرِيْنَ عُمْراً ولكنْ ... لَمْ يَكُنْ قَاصراً بِدَرْبِ الرشادِ
وإذْاْ ما بِهِ الْحَوائجُ تُقْضَى ... فَهْوَ نجلُ الرِّضَاْ وَبَابُ المرادِ

يوظف المنصوري الرثاء تبعا للغرض الإنساني الذي يتناوله، ويبدا مستهلًا أبياته بقلوب موشحةٍ بالسواد قابعة بالاسىَّ؛ لفقد الجواد (ع)، وما يلحق بالرمز من ظلمٍ يلحق أتباعه؛ ليجعل الشاعر من قضية الظلم قضية عامة، و بأسلوبس فنيّ رشيق يتخلص من الرثاء إلى المدح في ترابطٍ جميل، فالممدوح على رغم صغر سنه إلا أنه عالمًا بدروب الموعظة، والحكمة وكان بابًا للقاصدين وطالبي العلم، كيف لا وهو سليل العظماء وابن باب المراد الإمام الرضا(ع)، ليختم الشاعر قصيدته بمشهد فني مؤثر حيث يلتقي الإمام الجواد(ع) بجده وأبيه (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، وهو يشكو ما لحقه من ظلم وجور، فيقول [20]:

راحَ يَشْكُوْ لِلْمُصْطَفَىْ وعَلِيَّ ... كُلَّ ما قَدْ رَأى من الأوْغَادِ

وتُعد لغة الشعر مكون مهم في البناء الفني للقصيدة بل هي "كل مكونات العمل الشعري من لفظٍ، وصورٍ، ومن خيالٍ، وعاطفةٍ، ومن موسيقى، ومن مواقف بشرية"[21]، بها ينظم الشاعر كل نزعاته واتجاهاته، يقول الشيخ محمد جواد قسام[22]:

بِكُمْ آلَ بَيتِ الله يُسْتدْفَعُ الضَّرُّ ... وفي فَضْلِكُمْ قَدْ صَرَّحَ الْوَحْيُ وَالذِّكْرُ
صَبَرْتُمْ عَلَى جَورِ الطّغَاةِ وإنّمَا ... سِلاحُ رِجَالِ المُصْلحينَ هوَ الصَّبرُ
عَزِيْزٌ على الاسلامِ ما حَلَّ فِيكُمُ ... مِنَ الضَّيْمِ مَا يَشجَى لِسامِعِه الذّرُ

نرى أن الشاعر قد استعمل عند مدح الإمام الجواد(ع) ألفاظًا ذهنية استدلالية، وهو أسلوب ذكي في اختيار هذه الالفاظ؛ ليدفع المتلقي إلى إجراء ترابطٍ عقلي بينها وبين الممدوح وهي قريبة المعنى يفهمها السامع، ويعي ما فيها، فعندما أراد الشاعر أن يدلل على عِظم مكانة الممدوح استعمل ألفاظًا مثل (آل بيت الله ، الوحي ، الذكر)؛ ليفصح بعدها عن نزعة الظلم قدر الجور الذي تعرض له هؤلاء الأقداس، فيقول : (صبرتم)، إذ الصبر يأتي عن الظلم الكثير لا القليل، وهنا لا يريد الشاعر أن يهون جلل مصاب الإمام الجواد ع) بل أراد أن يخبر السامع بمصاب أهل البيت، وجور الظالمين عليهم .

ولا يبتعد الرثاء عن المدح في اختيار ألفاظه، "سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطًا بالتلهف، والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكًا"[23]، كيف إذا كان الإمام الجواد(ع) يقول السيد صالح القزويني النجفي راثياً[24]:

...عفَا بَعْدَكَ الإِسْلَامُ حُزْناً وأَطْفِئتْ مَصَابِيحُ دينِ الله فالكَوْنُ مُظْلِمُ
فيا لكَ مَفقُوْداً ذَوتْ بَهْجَةَ الهُدَى لَهُ وَهَوَتْ مِنْ هَالَةِ الْمَجْدِ أنْجُمُ

في هذه الأبيات التي تلتحم فيها العاطفة الملتهبة بالفقد الذي لا يعوضه شئ، يتخذ الشاعر الألفاظ (اطفئت، ذوت، هوت) وسيلةً لتعظيم قدر الظلم الذي لحق الإسلام كله، وهي ألفاظ قد أسبغت على لغة الشعر المرونة وسهولة الفهم، ذات تقطيعٍ موسيقيّ جميل يلاطف نغمة الحزن، فالقارئ يجد نفسه يردد المقاطع:

عفاا...بعدك الاسلام حزنا...

وأطفئت...مصابيح دين الله ... فالكون مظلمُ

نجد أن الموسيقى الداخلية التي تطول وتقصر، تبعًا للتجربة الشعرية التي تتراكب وتتلاحم عناصرها الوجدانية والفكرية من ألفاظٍ، وصورٍ، وأخيلةٍ، وإطار موسيقيّ[25]، ليكشف لنا هذا التقسيم الإيقاعيّ القصير عن معانٍ جديدةٍ يتوصل إليها القارئ المتمرس في خلق تقابل بين قصر عمر الإمام الجواد(ع) وقصر المقطع الصوتي المنخفض المتناسب مع غرض الرثاء ومقدار الظلم والجور.

المبحث الثاني

نزعة الموت والخلود

كان للموت فلسفةٌ خاصة لدى أمة الشيعة على وجه الخصوص فهي لم تنحسر في الحياة والموت بل تعدت إلى إظهار مشيئة الخالق، والتسليم المطلق لها، والإمام الجواد (ع) قد "استشف من وراء الغيب أن الأجل المحتوم سيوافيه، وأن عمره كعمر الزهور وقد أعلن ذلك لشيعته في كثير من المواطن"[26]، روى طالب القمي، قال : "كتبت الى أبي جعفر بن الرضا(ع) أن يأذن لي أن أندب أبا الحسن-يعني أباه- قال: فكتب : "أن اندبني وأندب أبي"[27]، ولعل نزعة الظلم والجور قد أسبغت على فكرة الموت والخلود لونها الذي حاول أغلب الشعراء بيانه في قصائدهم، ذلك أن الموت يفني الأجساد فحسب لا الأعمال، ومن الأساليب الفنية التي برع فيها من أحسن الصناعة الفنية، والقدرة على التصوير، و"نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال"[28]، وهذا ما نلمسه في قول : السيد محمد حسين الصغير[29]:

تَعُجُّ بكَ المآثرُ والمعالي وتفتخرُ الحواضرُ والبوادي
رأى التاريخُ فيكَ عميدَ دينٍ رفيعَ الشأن.. منتصبَ العمادِ
فقلّدَك الخلودَ.. وكنتَ فذّاً بعيدَ الغورِ.. رحبَ الإمتدادِ

نجد إن الشاعر يخلق وبطريقةٍ فنيةٍ جميلةٍ صورةً تعبيريةً يجسد فيها نزعة الخلود، إذ يجعل من التاريخ صورةً حيَّةً يقلد العظماء وينحني لرفيع شأنهم ، كما أن الأفعال (تعج ، تفتخر، فقلدك) أفعال تعج بالحيوية

والحركة، وبالتالي تجعل من القارئ ينقاد إلى غرض القصيدة، فيمكن للمتلقي أن يتصور الممدوح (الإمام الجواد ع) النواة التي تدور حولها المآثر والمعالي تفتخر فيه الحواضر والبوادي.

نعم هذا هو سليل العظماء، والجدير بالحياة الخالدة بعيدة الغور رحبة الامتداد، نلاحظ من هذه الأبيات التي يمتزج بها المدح بفخر القائل؛ لانتمائه لآل البيت العظماء، أنه وظَّف ألفاظًا (تعج بك المآثر، وتفتخر الحواضر، رأي التاريخ، عميد الدين...) كما أعطت الهُوية الانسانية للحياة الحقيقية، والتي تستحق أن يُخلدها التاريخ.

ومن الظواهر الفنية التي يلجأ إليها أغلب الشعراء؛ لاظهار عظيم شأن ممدوحيهم هي استعمال الألفاظ الأجنبية، ووضعها بين قوسين وهو أسلوبٌ فنيّ، الغاية منه تنبيه القارئ إلى دلالة تلك الألفاظ ، وإن من أهم أدوات الخلود هي أن تتفوق على كل رموز التاريخ وعظماؤه، يقول السيد محمد حسين الصغير في موضع آخر [30]:

...

فما ((سقراط)) الا مستدُ لحكمتِكَ المنوطة بالرشادِ
و((رسطاليس)) قد قصرت يداهُ و((افلاطون)) دونكَ في العدادِ

فإذا نظرنا إلى عمق معاني هذه الأبيات نجد أن الشاعر يستعمل ألفاظًا معروفةً في مجال العلم والحكمة أعلام خلدها التاريخ وأجلهم احترامًا (سقراط ، رسطاليس ، أفلاطون)؛ ليمنح (الإمام الجواد ع) وعن استحقاق أعلى درجات العلوّ، فكل هؤلاء الذين منحتهم الدنيا حياة أبدية، وخلدهم التاريخ ماهم الا منقادين لحكمة وعلم الإمام (ع) .

لاسيما إن كانت قضية الحياة والخلود ترتبط بمشيئة الله عز وجل، فهو الرافع الخافظ

فيقول[31]:

أراد الله رفعك سرمديا فأنى تستطيلُ يدُ العبادِ؟
وأنى يستعيدُ الشعرُ معنىً؟؟ وانت بكل معنىً مستعادِ
إذا العلماءُ قد مُنِعوا حديثاً فقد نَشَرَتْ فضائِلكَ الاعادي
وإن حُبِسَ اللسانُ القولَ عّياً فمجدكَ ناطقُ في كلّ نادِ

ويجسد الشاعر كل معاني الخلود التي تأتي على رغم كل المعارضين والمبغضين، وأمر الله بالغ بأن يجعل تخليد فضائل الإمام على يد الأعادي؛ ليكسر الله مشيئة الظالمين، ومن يمنع ذكر فضائل الإمام الجواد، وهي ما لايمكن منع ذلك المجد، في استعمال الشاعر للطباق الإيجاب (منعوا-نشرت، حبس-ناطق) دور في إفهام المتلقي، وإثارة التوقع فيدفعنا إلى الإحساس بفضائل الفخر الأبدية الإمام(ع) عند الله فإن منع الظالمين حديثًا نشره الله، وعلى يد الأعادي، وإن حبس اللسان عن ذكر الفضائل، لاحت مجدك ينطق في كل مكان.

ويرى السيد صالح القزويني أن حياة الإمام القصيرة، والمليئة بالضيم والهضم قد تركت في قلوب محبيهم وتابعيهم ألمًا لا ينتهي أو يزول، فيقول[32] في أبياته متوجعًا:

...

عَلى قِلّةِ الأيامِ وَالمَكْثِ لَمْ يَزلْ بكُمْ كُلَّ يَومٍ يُسْتَضَامُ وَيُهْضمُ
فَيَاْ لِقَصرْ العُمْرِ طَالَ لموتِهِ عَلَى الدِّينِ والدُّنيَاْ البُكَا والتألمُ

فيعبر الشاعر عن شدة انفعاله وحزنه الطويل على ما لَحِق الإمام الجواد (ع) من ظلمٍ، فقد وظَّف أسلوب الطباق (قصر – طال)؛ لتظهر التفاوت الزمني فالإمام قد مات شهيدًا ، ولكن الألم كبير، والبكاء يطول عليه .

أما الشاعر محمد حسين الأصفهاني، فيأتي بفكرةٍ مغايرةٍ للموت، ويبدع في فن مراعاة التنظير حين يكون الموت أعلى درجات الجود، فيقول[33]:

هو الجواد لا جوادَ غَيْرُهُ لا خير في الوجودِ إلا خيرهُ
وجاد بالتكوينِ والتشريعِ بمقتضى مقامهِ المنيع
حتى إذا لم تبقَ منهُ باقِيَهْ جَادَ بأنْفس النفوسِ الراقيهْ

نجد أن الشاعر قد أجاد في تناسب الألفاظ بين التكوين والتشريع، وما بين مقامه المنيع، إذ جعل تآصر بين أهل البيت، وبين الدين في تكوينه وتشريعه، فتلك المعاني هي المكوَّن الشيعي في حقيقة الانتماء، فأهل البيت هم مشرعوا دين الله في أرضه. نجد أن الشاعر في صدر هذه الأبيات قد جانس بين الجواد، وجواد مما يدفع السامع إلى الإصغاء والتأمل، ثم في عجز البيت الأخير جاء الجناس في (بأنفس والنفوس) بسحر خاص كانت الألفاظ تناسب الصورة التي قصدها الشاعر.

هكذا كان الموت لأبناء النبيّ (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) بوابة للخلود وهي نزعة إنسانية كثيرًا ما يسعى لها الإنسان بطبيعته، وإنَّ ما يعشية المرء من عمر قصير تترك في قلوب المحبين لوعة ورغبة في لو كان عمره أطول ، يقول الشيخ محمد الخليلي[34]: فيصور الإمام، وقد تقطع كبدة، وهو يعاني من شدة الألم :

...

إلى أنْ قَضَى سَماً ولمْ يَقْضِ خَمْسة وَعِشرِيْنَ عَاماً لا تزيدُ عِدادا
قضى ظَمِئاً والسُّمُّ قَطَّعَ قَلْبَهُ وَقَدْ وَسَّدَتْهُ النّائِبَاتُ وِسَادْا
غريباً سَميماً صَابراً لَمْ يَجِدْ لَهُ نَصيرْاً وَلَمْ يُلفِ الجَوَادُ جوادا

نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات قد التزم ثلاثة أحرف للروي: حرفي المد يتوسطهما (حرف الدال)، وحرف المد هنا يوقع يوجد جرسًا موسيقيًا في أذن المتلقي؛ ليفصح عن مقدار الحزن والألم الذي طال باطالة حرف المد، فالإمام لم يمتْ موتًا طبيعيًا، وإنما طالته يد بني العباس الغادرة التي لم ترعَ حرمة النبي في أبنائه ، فدسَّ إليه السمَّ ، ليموت غريبًا صابرًا على أمر الله.

لكن من هو الموت، حتى ينهي حياة العظماء وإن قصرت، فالله مولى المؤمنين وناصرهم، وعليه حفظ ذكرهم في قلوب المؤمنين وصفحات الخلود، يقول السيد محمد حسين الصغير[35]، في قصيدته الدالية التي مدح فيها الإمام الجواد(ع) :

...

أرادَ الله رَفْعَكَ سَرمدياً فأنى تستطيلُ يدُ العبادِ
وأنى يستعيدُ الشعرُ معنىً؟؟ وانتَ بكلّ معنىً مستعادِ

هنا يصيح الموت حياة ممتدة لا توقفها يد الحاقدين والحاسدين لأتباع الله؛ لهذا التزم الشاعر حرفيّ الروي ألف المد والدال؛ ليعطي دلالة العلوّ والسموّ والخلود لمن أراد الله رفعه من العباد، كما أن البنية الفنية للبيت الثاني في جعل الاستفهام الذي خلق نوعًا من التحاور الذهني بين النصّ

والسامع في الممدوح الذي أمسى وجهة يقصدها الشعراء في معانيهم .

لهذا يتجة السيد حسين الصغير في خاتمة قصيدته بيقوله [36]:

على بابِ الجوادِ أنختُ رَكْبي فكانَ الفتحُ في (بابِ الجوادِ)
ولا عجبٌ ..فقد قالوا قديماً: (وفتُ على الكريمِ بغيرِ زادِ)

نرى أن التضمين أعطى الأبيات حلاوة وأكسبها قوةً في المعنى المراد توصيله إلى المتلقي، فالممدوح عظيم، وحاجة الشاعر كبيرة؛ لقضاء حوائجه، ففي البيت الأول ضمن(باب الجواد)؛ ليجعله دليلًا على

صواب الوجهة التي يتجه إليها في طلب مراده، أما البيت الثاني فيه إقبالٌ، وتوجه أكبر، فقد ضمن مثل عربي معروف يطلق على كثير السخاء والعطاء، كان الإمام الجواد معروفًا بجوده وهذا ما أراد الشاعر توجيه السامع إليه.

يقول في موضع آخر[37]:

وسارَ العلمُ في ركبٍ وقورِ صليبَ العودِ.. مخضرَّ المداد

يصور الشاعر مشهدٌ مهيب لتشيع الإمام الجواد (ع) ، في مسيرة خيَّم عليها الصمت والوقار، وهم يحملون صاحب الخمسة والعشرين عامًا، وهو في ريعان شبابه إلى جنة الخلد، كانت الاستعارة المكنية تؤسس بنية البيت بالكامل، فاستعار الشاعر لفظ (العلم)، وجعل الإمام هو العلم والعلم هو الإمام ، كما استعار لفظ(صليب العود) ليشير إلى نسبه الكريم، واستعار(مخضر المداد)؛ ليدلل على قصر عمره.

باستشهاد الإمام الجواد (ع) طويت الفظائل الإنسانية و "انطفت بموته شعلة مشرقة من الامامة والقيادة الواعية المفكرة في الإسلام"[38]، يقول محمد سعيد المنصوري في صورة رائعة[39]:

إن قضى ظامِئاً فليس عجيباً يُحرَمُ الوِردَ منهلُ الوُرادِ

نجد أن الصورة البصرية في عجز البيت (يحرم الورد منهل الوراد) كفيلة بالرد على من يتعجب لقتل الإمام (ع) عطشانا،وهو من هو ساقي الحجيج، وابن صاحب الكوثر، وليس عجيبًا أن يموت عطشانًا، فقد منع جده من قبل ورود الماء في كربلاء.

يقول السيد محمد حسين الصغير[40] :

تَؤُمُ ضَريحَكَ الأرجَ المندى وفدُ اللهِ من حَضَرٍ وبادِ
كأنَّ المسكَ ضَمَّخَ جانَبيهِ بأشذاءِ الروائح والغوادي
يُباكرُهُ الندى غَضّاً ذكّياً ويسقي روضهُ صوبُ العهادِ

يصوّر الشاعر مشهد زيارة الإمام، وحركة الزائرين القادمين من مختلف المناطق، وهم في حركة تموج بين الذهاب، والإياب، وقد خضبت أجساهم المسك صورةً نفسيةً مليئةً بالحركة حول زيارة الإمام (ع) الأبيات سبكت بشكلٍ فنيّ رائع صورة تعج بالحركة، والانفعال النفسي، وهي تصور حركة الزائرين في دخول الضريح والخروج يشهدهم الحنين؛ للعودة صورة نفسية رائعة تجعل السامع يتفاعل ويعيش أجواء الزيارة، وحالة القاصدين، فالقادم يجذبه الشوق والغادي يشده الحنين؛ لمعاودة الزيارة صورة الخلود في قلوب المحبين والموالين هي صورة للحياة ونزعة البقاء فيه، والوعي الإنسانيّ، وذاكرة التاريخ .

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث أقول إن شعراء أهل البيت حاولوا التركيز على قضية الظلم والجور؛ إيمانًا منهم بأنها القضية الأساسية التي تتفرع منها بقية القضايا الإنسانية من البغض والكراهية أو الموت والخلود، وبذلك نزعت أشعارهم إلى أفقٍ إنسانيّ رحب يدل على سموّ القضية الإلهية، وأن الإنسان يسمو بجانبه الإنساني النقيّ، لا بجبروته.

تضمنت الأبيات أساليب فنية خلقت نوعًا من التواصل بين اللفظ والسامع، وأتاحت له أن ينمي فكره الإنسانيّ، وتأسيس توجهٍ جديدٍ نحو طريقة العيش الإنسانيّ وإمكانية الحياة الحرة لكل إنسان.

نوع القضايا التي حاول الشعراء طرحها تلخصت في موضوع الرثاء، والمدح، والفخر، وهي وسائل الغاية منها تسليط الضوء على بشاعة الظلم والجور كما كانت وسيلة الشاعر لطرح آراءهم الإنسانية في أن الموت قد يكون غاية إنسانية يوثقها التاريخ.

الهوامش:

[1] - دليل الناقد الأدبي : 47
[2] - معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : 210-211
[3] - الإسلام والنزعة الإنسانية : 14-15
[4] - سورة الحجرات: 13
[5] - ينظر: النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها : 11
[6] - كتاب العين : ج4 /211
[7] - ينظر: الإنسان ذلك المجهول : 141
[8] - معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(816هـ) : 35
[9] - ينظر: النزعة الإنسانية عند جبران : 94
[10] - قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية : 73.
[11] - الامام الجواد من المهد الى اللحد :1 / 32
[12] - أمهات المعصومين :261.
[13] الإمام الجواد من المهد الى اللحد : 60.
[14] الكافي، محمد بن يعقوب الكليني : 492/1.
[15] الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي : 261/1.
[16] - الدُرّ النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم : 671.
[17] - ينظر: معجم البلاغة العربية : 164
[18] -جواد الامة، شهادة الامام محمد الجواد(ع) : 11
[19] - ديوان ميراث المنبر : 347
[20] - ديوان ميراث المنبر : 347
[21] - لغة الشعر الحديث، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية : 76
[22] - حياة الامام محمد الجواد دراسة وتحليل : 96
[23] - العمدة في محاسن الشعر وآدابه، باب الرثاء : 308
[24] - الامام الجواد من المهد الى اللحد : 2/ 33
[25] - ينظر : موسيقى الشعر العربي، دراسة فنية وعروضية :ج1/ 22
[26] - حياة الامام محمد الجواد ، دراسة وتحليل : 316
[27] - وسائل الشيعة : 598، الحديث الخامس
[28] - ابن الرومي حياته من شعرة : 237
[29] - ديوان اهل البيت : 247
[30] - ديوان اهل البيت : 247
[31] - ديوان اهل البيت : 248
[32] - الدمعة الساكبة ، البهبهاني : 87-90
[33] - الانوار البهية : 106-108
[34] - المقرم السيد عبد الرزاق الموسوي : وفاة الامام الجواد (ع) : 98-99
[35] - ديوان اهل البيت : 248
[36] - ديوان اهل البيت: 250
[37] - ديوان اهل البيت: 249
[38] - حياة الامام الجواد دراسة تحليلة : 320
[39] - ديوان ميراث المنبر: 347
[40] -ديوان اهل البيت : 248

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.
2- الإسلام والنزعة الإنسانية، زكي ميلاد، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان2013.
3- الإمام الجواد من المهد الى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، شركة الفكر، قم إيران.
4- الإنسان ذلك المجهول، كاريل، الكسيس، ترجمة: شفيق اسعد فريد، مكتبة المعارف، **بيروت، 1994.**
5- الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 1417هـ.
6- جواد الامة، شهادة الامام محمد الجواد(ع)، معهد سيد الشهداء(ع) للمنبر الحسيني، نشر جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت – لبنان.
7- حياة الإمام محمد الجواد، دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي، قسم الثقافة والإعلام، العتبة الكاظمية المقدسة، العراق.
8- الدُرّ النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم، يوسف بن حاتم الشامي، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، 1420.
9- دليل الناقد الأدبي، د. ميكان الرويلي، د. سعد البازعي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء –المغرب،2002.
10- ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،2012.
11- العين، تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان 2003 م، باب النون.
12- قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سامي ذبيان وآخرون، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 1990.
13- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، تصحيح وتعليق/ علي أكبر الغفاري، مطبعة الخيام، 1983م.
14- لغة الشعر الحديث، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، الدكتور السعيد الورقي، ط2، دار المعارف ،1983م.
15- معجم البلاغة العربية، بدوي طبانه، ط3، الرياض دار الرفاعي.1988م.
16- معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(816هـ)، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة.
17- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم، د، محمد سعيد علوش، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1985.
18- موسيقى الشعر العربي، دراسة فنية وعروضية، يوسف حسني عبد الجليل، المؤسسة العامة للكتاب، مصر، 1989.
19- النزعة الإنسانية عند جبران، عدنان يوسف سكيك، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
20- النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها، د. بهاء الدين محمد مزيد، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية- مصر، 2007-2008.
21- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن بن الحر العاملي، ط4، المكتبة الإسلامية ، طهران ، 1978.
22- ديوان اهل البيت ، الدكتور محمد حسين علي الصغير، العتبة العلوية المقدسة-قسم الشؤون الفكرية والثقافية، ط1، لبنان بيروت ، 2012م .
23- ديوان ميراث المنبر، الخطيب الشيخ محمد سعيد المنصوري، انتشارات المنصوري، ط1، ايران – قم ، 1423ه.